As'ad Khairallah, *Love, Madness and Poetry - An Interpretation of the Magnūn Legend*, Beirut, 1980, Preface, 143 pp. Bibliography and Index.

كتاب أسعد خير الله، وعنوانه الحب والجنون والشعر ــ تفسير لأسطورة المجنون، هو في الأصل أطروحة دكتوراه كان المؤلف قد كتبها في جامعة برينستون عام ١٩٧١. وحالت بعض الصعوبات دون نشر هذه الدراسة عند الانتهاء من وضعها الى أن تسنى نشر الكتاب عام ١٩٨٠. والكتاب مؤلف من أربعة فصول يبحث أولها في الاطار النظري للمشكلة، ويدل عنوان الفصل على مضمونه، وهو "الجنون أو الرؤيا الشعرية" (ص ١١ ــ ٢٥). ويرمي المؤلف الى توضيح الاتجاه النقدي الذي انتهجه في دراسة أسطورة المجنون، ذلك الاتجاه القائم على نظرية العالم النفساني كارل يونغ في "النماذج الأولية" (archetypes). وتقول هذه النظرية بوجود ميول نفسانية ثابتة ترسخ جذورها عميقا في نفوسنا، وتتبلور من تجارب الانسانية جمعاء منذ أقدم العصور مكونة لما يسمى باللاوعي الجماعي. ويرى المؤلف أن هذا الاتجاه النقدي أجدى نفعا من الاتجاهات الأخرى في تفسير الأسطورة، لأنه يمكن من تحديد طبيعة العلاقة بين الميول النفسية الأساسية وبين الأنماط الأدبية والرمزية التي تعبر عنها (ص ١٦ ــ ١٧). وينتقد خير الله بعض من سبقه في دراسة الأسطورة، وبينهم غنيمي هلال، لانعدام منهج نقدي واضح المعالم في دراستهم. وعلى سبيل المثال، لا يوافق المؤلف على ما ذهب اليه غنيمي هلال من التمييز بين المرحلة العربية العذرية والمرحلة الفارسية الصوفية في تطور أسطورة المجنون، ويرى أن العذرية والصوفية ممتزجتان في الأسطورة بشكل لا يسمح بوضع حد فاصل بينهما، وذلك لأن الأسطورة تعكس مواقف صوفية حتى في أقدم مراحلها.

ويناقش الفصل الثاني (ص ٢٧ ــ ٥٦) الخلفية الثقافية من خلال ابراز

وتفسير بعض العوامل الاجتماعية والدينية والأدبية التي أثرت في تأليف أسطورة المجنون وتطورها . ثم يتعرض للتعليق على ثلاث روايات للأسطورة أقدمها رواية ابن قتيبة (توفي ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م) في كتاب الشعر والشعراء ، ويليه أبو الفرج الاصفهاني (٣٥٦ هـ / ٩٦٧م) في كتاب الأغاني ، ويليه أبو بكر الوالبي (مجهول تاريخ الوفاة) في كتاب قيس بن الملوح المجنون وديوانه ، الذي يرى فيه خير الله أقرب صيغة عربية الى رواية غرامية حول المجنون . كما يصفه بأنه تأليف جماعي غير عضوي يعكس ميولا شعبية وصوفية .

أما الفصل الثالث (ص ٥٧ ــ ٩٦) فيتضمن تحليلا مفصلا لنموذج المجنون الأولي في كتاب الوالبي . والفصل الرابع (ص ٩٧ ــ ١٢٥) يقدم دراسة للرواية الشعرية التي كتبها بالفارسية عبد الرحمن الجامي (١٤٩٢م) ، وقد وصل فيها الى ذروته الاستغلال الصوفي للطاقات الكامنة في هذه الأسطورة العربية . وينتهي الكتاب بخلاصة وذيل .

ان "جنون" قيس بن الملوح ينعكس في خرقه للأصول المتبعة في مجال السلوك الفردي ، والشعور بالغربة والانزواء عن مصاحبة الناس ، واللجوء الى حضن الطبيعة ، والامتناع عن تناول الطعام والشراب الخ . كل ذلك هو بمثابة رفض للمواضعات الاجتماعية والدينية ، ورغبة في الامتزاج المجدد مع الطبيعة . ولكن هذا الجنون يفسر في الكتاب على أنه رمز لثورة ومثال شعري أعلى في آن واحد . ان السلطة في كل زمان ومكان ترى من حقها ، بل من واجبها ، أن تحدد معنى الخير والشر ومدلولاتهما ، فتضع بذلك القواعد العامة للّعبة الاجتماعية . وكل من ينصاع لهذه القواعد فهو العاقل الذي يتمتع بالصحة ، وكل من يحيد عنها أو يرفضها فهو المجنون أو المريض عقليا أو نفسيا . وفي الوقت الذي يكون فيه الجنون وصمة من ناحية ، يصير المجنون من ناحية أخرى رمزا للثورة ضد الضغوط الاجتماعية والعقلانية التي تقيد من حرية الانسان في تعامله مع نفسه ومع العالم الخارجي . من هنا شعورنا بالغربة والضياع ، ومن هنا أيضا التشوق الى السعادة الضائعة والرغبة في العودة الى الأرحام ، الى الطفولة الساذجة والى عالم الخير والكمال . والعودة الى الماضي تتحقق عن طريق الاستعارة والرمز ، ويحظى النموذج الذي يجسّد هذه العودة بتعاطف البشرية . ومجنون ليلى نموذج أولي بطولي ينير الطريق ، من خلال الحب والشعر والجنون ، الى الاتحاد بالله أو بالمحبوب والفناء فيه .

وفـي المجال العربي ـ الاسلامي، يذكرنا أسعد خير الله في دراسته أن الجاهليين اعتبروا الشاعر والكاهن والساحر والمجنون حلقات اتصال مع عالم الأرواح غير المنظور . اذ ان لكل منهم معرفة سرية تصله عن طريق الالهام . وقد يذكر القارئ أن المعارضين للاسلام اتهموا نبيه بأنه مجرد شاعر أو مجنون . والمعروف أن الوحي في الاسلام قد انحصر في شخصية النبي وحده عن طريق جبريل، ورسخ الايمان باعجاز القرآن الذي يمثل وحده الحقيقة المطلقة . بعبارة أخرى، ان الوحي الشخصي قد انتهى لأنه يعارض أهم المعتقدات الدينية . ومن هنا فان مكانة الشاعر قد خسرت كثيرا من اهميتها، فبالرغم من ان الشاعر ما زال يؤدي دورا سياسيا واجتماعيا، فانه لم يعد يعتبر مصدر معرفة روحية يتلقاها عن قوى غير طبيعية . أما رجال الشيعة والصوفية فقد جاهدوا في تضييق الهوة التي تفصل بين الانسان والله . قبل كل شيء ينعكس ذلك في فكرة الامام الملهم، ثم في فكرة جواز تأويل آيات القرآن وتفسيرها تفسيرا باطنيا، مما يؤكد حرية التعبير عن نظرة شخصية للحقيقة . وما أكثر ما بذله الصوفية في سبيل الحصول من جديد على حق الاتصال المباشر بين الانسان والله . وبصورة معيّنة، ساهموا في تقوية وتطوير ملكة الابداع الجمالي التي تعرضت للكبت من قبل رجال الدين .

وعلى ضوء هذا التفسير، يظهر أن اسطورة المجنون لا تعكس تشوقا رومانتيكيا للحياة في حضن الطبيعة فحسب، وانما تعكس مواقف صوفية، فمجنون ليلى هو النموذج الأولي الأمثل الذي يتجسد في شخصه ثالوث الحب والشعر والجنون، وكل من هذه القوى الثلاث هي بمثابة قناة للاتحاد بالمحبوب والفناء فيه . وفي نظر الصوفيين، صار المجنون رمزا لتجربة الاتحاد بالله . ولاثبات هذا التفسير، يذكرنا الباحث أن الكثير من شعر المجنون وجد في المصادر منسوبا لشعراء آخرين، وأن الأخبار عن حياته وعشقه تختلف وتتناقض في تلك المصادر، الأمر الذي يشير الى أن أمامنا "انتاجا جماعيا" اشتركت في خلقه أمة بأكملها . ولذلك تعكس أسطورة المجنون بأمانة جميع الميول الفنية والاخلاقية والروحية للأمة بأسرها، أو لما أسماه يونغ "اللاوعي الجماعي" .

لا يسع القارئ لهذا الكتاب الا أن يشيد بما بذله المؤلف من جهود في تفهم النصوص القديمة والتقصي في استخلاص النتائج . ومن الواضح أن أسعد خيرالله كان في مرحلة اعداده لهذه الدراسة قد اطلع على الكثير من الأبحاث التي تطرقت الى قصة المجنون، ومنها ما كتب بالفارسية وبلغات أوروبية كالانجليزية والفرنسية

والألمانية ، الأمر الذي مكنه من الاختيار والمقارنة والتمحيص الدقيق بغية القاء الضوء على موضوع بحثه . ومما يمكن أن يقال عن هذه الدراسة التي نستعرضها أن تفسيرها لما ترمز اليه شخصية المجنون هو تفسير معقول تدعمه التفاصيل المذكورة في الأسطورة وتقويه دلالة المقطوعات الشعرية المنسوبة اليه . وبعبارة أخرى ، ان المؤلف لم يفرض تفسيره فرضا على العمل الأدبي كثوب جاهز ، وانما تفادى المزالق التي يقع فيها دارسو الأدب عندما يستعينون بنظريات علمية حديثة خارجة عن طبيعة الأدب . ويكفي أن نشير أن معالجته للجنون كرمز أدبي لها جذور راسخة في تاريخ الفكر العالمي . فالمعلوم أن أفلاطون في الحوار المسمى فايدروس كان قد تحدث عن الجنون الالهي الذي يتعرض له الأنبياء والصوفيون والشعراء والعشاق كمنحة سماوية ، وذكر العشق بصورة خاصة على أنه قناة تؤدي الى الاندماج بالذات الالهية . وعن طريق الافلاطونية الحديثة تشبع العذريون والمتصوفون بالأفكار التي نجد "صداءها في أسطورة مجنون بني عامر .

وهكذا فان الاستعانة بالعلوم ، ومنها علم النفس والانثروبولوجيا ، لا ضرر فيها على النقد ودراسة الأدب ، شريطة ألا تتحول هذه العلوم لدى دارس الأدب الى غاية بحد ذاتها ، ولا يعتبرها الناقد الوسيلة المثلى والوحيدة لتفسير العمل الفني وتقييمه .

دافيد صيمح